



أخسر الناس أعمالاً..

من هم؟

وكيف تتجنب مسارهم؟

جواد كاظم

مقدمة:

حقيقة الضلالة

وخطر الغفلة

مقدمة:

حقيقة الضلالة

وخطر الغفلة

إنَّ السمة الغالبة على معظم المنحرفين في البشرية، بحسب الظاهر، ليست مجرد العناد والمكابرة - وإن كان في الواقع معاندون - بل هي الضلالة؛ أي تدين الناس بغير دين الحق مع توهمهم أنهم على صراط مستقيم. ومكمن الخطر في الضلالة هو أن يحسب الإنسان نفسه على حق وهو غارق في الباطل؛ ومن هنا ينبغي للمرء أن يتساءل بجديّة: كيف يبلغ اليقين والاطمئنان بأنه ليس من تلك الأكثرية الضالة؟

ولعل من أشد الآيات وقعاً على القلوب قوله تعالى في سورة الكهف: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا»، حيث بيّن القرآن الكريم أن جزاءهم جهنم. ونحن نردد يومياً في صلاتنا: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»، مما يستوجب الحذر الدائم والبحث الصادق عن معالم الهداية.



إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَرَدَّى فِي بئر لَعْمِهِ وفقدان للبصر لم يَلُمّه أحد، لكن اللوم والتقريع يلحقان البصير الذي يغمض عينيه متعمداً ويسقط في الهلكة. فقد أنعم الله سبحانه على الإنسان بنعمة السمع، والبصر، والإحساس، وتوَجَّ ذلك كله بنعمة العقل ليهتدي به في مسالك الحياة؛ فإن عطل هذه النعم ولم ينتفع بها فلا يلوم من إلا نفسه.

ونحن في مستهل شهر ربيع الأول، بعد انقضاء شهرين من التوجه الخالص إلى الله تعالى والتوسل بأهل البيت وبالإمام الحسين عليه السلام، وبعد تحصيل رصيد وافر من الأعمال الصالحة بتوفيق الله، يتأكد واجب رسم خارطة طريق للمستقبل؛ صيانةً لتلك المكتسبات وحذراً من أن تذهب الأعمال هباءً منثوراً.

وينتظم هذا البحث في أمرين أساسيين:
الأمر الأول: التنبيه واليقظة لئلا نكون من الضالين.
الأمر الثاني: وضع برنامج عملي يصون الإنسان من الضلالة ويبقيه على طريق الهداية.



المحور الأول: فقه التحذير القرآني من الضلال

المحور الأول:

فقه التحذير القرآني

من الضلال

عند التدبر في الآيات الكريمة، نجد القرآن ينسف عبادة غير الله ولايتهم من الأساس؛ إذ يقول تعالى: «أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ»، مبيناً أنه لا يجوز للإنسان أن يتولى أو يتبع من ليس ولياً لله تعالى. ثم يجيب سبحانه عن علة ذلك بقوله: «إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا»: فكل من اتخذ غير أولياء الله فهو كافر وإن زعم الاستقامة، ومصيره المحتوم إلى النار.

ثم يطرح القرآن بيانه الدقيق في قوله: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا»، مستعملاً صيغة أفعل التفضيل؛ إذ لم يقل "بالخاسرين"، بل «بِالْأَخْسَرِينَ». وفارق ذلك أن العارف بالحق إذا انحرف عنه لشهوة أو غفلة أو هفوة، يبقى احتمال توبته ورجوعه قائماً، بخلاف من يعتقد أنه على الحق وهو في صلب الباطل؛ فإنه يستمر في غيه ويقسم على صحة مسلكه وهو في واقع أمره واقع في الخسران المطلق.



وتؤكد الشواهد التاريخية والمعاصرة خطورة هذا الانحراف الفكري؛ إذ وقعت في بعض البلدان الإسلامية الموالية لأهل البيت عليهم السلام، كأفغانستان ولبنان، مآسٍ مؤلمة اقتتل فيها أبناء المذهب الواحد، فكان المقاتل يرفع راية الولاء ويستهدف أخاه الموالي وهو يظن أنه يحسن صنعاً، وذلك نتيجة الدسائس وغياب البصيرة والاصطفاف الأعْمى حتى الموت.

وقد اطلعتُ سابقاً على تقرير أعدّه أحد القياديين البارزين حول واقع الشيعة في أفغانستان عبر ثلاثة أو أربعة قرون، وما لاقوه من مآسٍ بالغة بلغت مئات الآلاف وقاربت المليون من القتل والدمار والتهجير القسري إلى الجبال الوعرة ومحاولات الإكراه على تغيير المذهب على يد مختلف الحكام. كما اطلعتُ على مذكرات ذلك الشخص إبان مرحلة الجهاد ضد القوات السوفيتية، حيث وثّق فيها صراعات دامية واقتتالاً داخلياً بين الفصائل الشيعية ذاتها. والملاحظ في هذه الوقائع أن التضحية والجهاد كانا حاضرين، لكن غياب الوعي والهداية الحقيقية هو الذي أفضى إلى تلك المآسي.

وكذلك شهدنا في أوائل قدومنا إلى العراق نزاعاً مؤسفاً بين طرفين من أبناءنا كاد يوقع خسائر فادحة وقتلى وجرحى، حتى جرى التدخل بالوساطة ورفع شعار الأخوة، ووفق الله سبحانه بجهود المخلصين إلى وأد تلك الفتنة التي لو استمرت لأهلكت الكثير.



إنَّ منشأ هذه الإشكالات هو العمل والتحرك بغير فقه وبصيرة؛ ولهذا كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يطوف في أسواق الكوفة منادياً: «معاشر التجار، الفقه ثم التجارة؛ فإن التاجر فاجر حتى يتفقه في الدين». فإذا كانت التجارة التي تنحصر خسارتها في المال المحدود تستوجب الفقه المسبق وإلا عُدَّ صاحبها فاجراً، فكيف بمسائل الحرب والدماء التي تعظم خسائرها وتتفاقم تبعاتها؟ ومن هنا تتأكد ضرورة الحساسية البالغة في التفتيش عن الحق والتفقه في الدين.

المحور الثاني: أدلة الهداية الأربعة ومعالم الرشاد



المحور الثاني: أدلة الهداية الأربعة ومعالم الرشاد

إنَّ الإنسان في هذه الحياة الدنيا، بما تكتنفه من مشاق وابتلاءات وظلمات، لا يسعه أن يسير مغمض العينين؛ بل هو في حاجة ملحة إلى دليل، شأنه شأن قبطان السفينة الذي يواجه الطوفان والأمواج والظلمات بالاعتماد على أجهزة الملاحة الدقيقة، أو قائد الطائرة التي تخترق الغيوم والظلمات على ارتفاعات شاهقة معتمداً على مؤشرات التوجيه، أو قائد المركبة الذي يستعين بخارطة الطريق.

وهذه الأدلة التي تعصم الإنسان من الضلال تتحدد، بحسب الترتيب والأولويات، في أربعة معالم أساسية:

الدليل الأول: العقل والتفكير

أول هذه الأدلة هو العقل؛ إذ خلق الله سبحانه السماوات والأرض بالحق، وجعل العقل مرآة لذلك الحق كاشفاً للحقائق ومميزاً بين الصواب والخطأ والخير والشر. وقد أودعه الله في فطرة الإنسان مع بداية إدراكه وتكليفه، وجاء في الحديث الشريف في شأن خلقه: أن الله لما خلقه قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال: «وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، بك أثيب وبك أعاقب». وتؤكد وصايا أهل البيت عليهم السلام، ومنها وصية الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم، على المحورية العظمى للعقل.

غير أن آفة الإنسان تكمن في الغفلة عن عقله وعدم تفعيله، أو إلقاء زمام نفسه لغيره بغير تمحيص وفكر. ولتفعيل العقل وتصفيته من شوائب الشهوات ووساوس الشيطان، يلزم تحقيقه عبر مسار التفكير؛ ومعنى الفكر لغةً قلب الأمور وفحص وجوه النظر وتأمل العواقب والمآلات. ولهذا ندب القرآن الكريم إليه في قوله تعالى: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ».



وقد ورد في النصوص الشريفة: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة»، وفي رواية أخرى: «تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة». ومن أعظم شواهد ذلك موقف الحربن يزيد الرياحي رضوان الله عليه يوم عاشوراء؛ إذ كان قائداً عسكرياً شجاعاً، لكنه حين راجع نفسه وأعمل فكره وارتعدت فرائصه، وسئل عن ذلك، أجاب بأنه يخير نفسه بين الجنة والنار، وأقسم ألا يختار على الجنة شيئاً، فتحول بساعة تفكر واحدة من مصير الهلاك في قعر جهنم إلى جوار الإمام الحسين عليه السلام والخلود في أعلى مراتب الجنان؛ في حين لو قضى سبعين عاماً في الركوع والسجود دون تفكر لمانجا.

الدليل الثاني: تزكية النفس والتدبر في القرآن الكريم

وثاني الأدلة هو القرآن الكريم؛ إذ أنزله الله تعالى لإثارة دفائن العقول وإيقاظ الإنسان من غفلته. فإن الغفلة والذهول كفيلان بإهلاك المرء كما يهلك السائق الشارد ذهنه في لحظات وجيزة؛ والقرآن الكريم يوقظ النفس ويهزها من الأعماق. ومن ذلك قوله تعالى: «أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ»، حيث يستغرق الإنسان في جمع الأموال ومكاثرة الأتباع حتى يفاجئه الموت الذي ينزع الروح في أقل من طرفة عين، فيودع كل ما ملك في لحظة مباغتة.



وللقرآن الكريم أثر تكويني نافذ في سائر الوجود؛ ومصدق ذلك ما شهدته
بنفسي حين كنت ألقى دروس التفسير في باحة المنزل إبان جائحة
كورونا، فكانت القطط تتجمع في سكينة وتستمع إلى تلاوة الآيات
وبيانها وتنصرف عند الفراغ منها، مما يدل على حضور الملائكة وتأثر
الكائنات بفيوضات الوحي. ومن هنا ينبغي للمؤمن، ولا سيما طلبة العلوم
الدينية في الحوزات، العناية الفائقة بدرس التدبر في القرآن؛ بجعل ورد
يومي للتأمل في دلالات الآيات ومقاصدها لتبلور العقل وتفتح البصيرة.

الدليل الثالث: دراية السنة الشريفة

وثالث الأدلة هو السنة الشريفة المتمثلة في أحاديث رسول الله صلى الله
عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام. ومن ذلك تدبر وصايا
النبي الأكرم لأُمير المؤمنين عليه السلام، ولأبي ذر، ولابن مسعود،
ومطالعة المجاميع الروائية القيمة ككتاب «كلمة الرسول الأعظم»
للشهيدي آية الله السيد حسن الشيرازي رحمه الله، إضافة إلى كتب
الهداية الكبرى كـ«نهج البلاغة» و«تحف العقول»، لما تحمله من معالم
الرشاد وضوابط الاستقامة.

الدليل الرابع: الاستماع إلى كلمات الناصحين

ورابع الأدلة هو الرجوع إلى كلمات الناصحين وأهل الخبرة والتقوى؛ فالاسترشاد بتوجيهات العلماء المخلصين والمربين الحكماء له بالغ الأثر في ترسيخ المعرفة وبناء الشخصية الواعية، ولو كانوا قلة في عددهم، فإن التأثير الحقيقي يكمن في عمق النصح ونفاذه إلى العقل والوجدان، كما كان شأن بعض الأساتذة الذين ربّوا حلقات يسيرة من الطلاب غدوا فيما بعد مراجع كباراً في الأمة.

نتيجة الهداية والتحذير من الخسران



نتيجة الهداية والتحذير من الخسران

فإذا استقام للمرء تفعيل العقل، والتدبر في القرآن، والتمسك بالروايات، والأخذ بنصائح الموجهين، أَمِنَ حينئذ أن يكون من الأخسرين أعمالاً. وخسارة هؤلاء هي الأشد لأنهم يتوهمون الاستقامة؛ فمن سلك طريقاً خاطئاً ظاناً أنه يقوده إلى مقصده - كمن يسلك طريق عين التمر وهو يقصد النجف - فإنه كلما زاد في السير ازداد بعداً عن الهدف. ومثل هذا الساعي لا ينفعه بذله؛ إذ يقول تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا».

العبودية ونبذ الغرور في لحظة اتخاذ القرار



العبودية ونبذ الغرور في لحظة اتخاذ القرار

إنَّ أخص ما يحتاجه الإنسان في لحظات اتخاذ القرار المصيرية هو التوجه الصادق والافتقار إلى الله سبحانه؛ إذ الهداية محصورة في فيضه تعالى: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ». فمدار حركة المؤمن هو ابتغاء مرضاة الله، والتوكل عليه، والبراءة من الغرور بالعلم أو بأدوات المعرفة؛ فإن الغرور يسقط صاحبه كما يهوي الساقط من قمة الجبل.

وقد رُوي في قصة مصاحب النبي عيسى عليه السلام حين سارا على الماء ببركة قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فلما دخله عجبٌ وظن في نفسه المساواة بنبي الله غاص في اللجة، حتى أدركه عيسى عليه السلام بيده منبهاً إياه على خطيئة الغرور.



فإن أقرب الخلق إلى الله وأعظمهم منزلة هم أعظمهم عبودية وخضوعاً له؛ ومن هنا كانت شهادتنا في الصلاة مقرونة بقولنا: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». ومن مظاهر تلك العبودية الخالصة أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، لعظيم إخلاصه وفنائه في طاعة ربه، سأل الله أن يعيذه من أن يعتقد أحدٌ فيه الألوهية أو البنوة، كما ضل بعض البشر في شأن عزيز أو عيسى عليهما السلام أو في الغلو ببعض الأولياء، فصرف الله ذلك عنه استجابة لفرط عبوديته وتواضعه لربه.

الخاتمة

وختاماً، فإن هذا البحث ليس ترفاً نظرياً، بل هو مسار تجريبي وعملي ينبغي لكل فرد أن يجعله منهاجاً في حياته؛ ليسلم من الخسران، ويحظى بالتوفيق والتسديد الإلهي ليكون هادياً ومستنقذاً لمجتمعه إلى صراط الله المستقيم.

وصلّى الله على محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين.



اضغط للمتابعة

شبكة بصائر العالمية